الحرب المقدّسة في سفر القضاة
روح الربّ يحارب الظالمين

دانيال عيّوش

مقدمة

ثمة اتفاق بين النقاد المعاصرين على أنّ التاريخ في الكتاب المقدس عمومًا وفي مدرسة تثنية الاشتراع خصوصًا «ليس سردًا لأخبار غريبة أو تقارير لنقل ما حدث، ولكنّه قراءةٌ نبوية ولاهوتية للحياة تنطلق من الإيمان ومن الله»[1]. لذلك من الأفضل اعتبار النصوص المسمّاة بالتاريخية سردًا إرشاديًا تربويًا أكثر منه تاريخًا بالمعنى الحديث للكلمة. يعرض سفر القضاة والكتاب المقدس كله الإيمان على أساس خبرة الإنسان مع نظيره ومع الله. ولكنّ سفر القضاة كان سببًا في محاولات تفسيرية مخطِئة ومغرضة لأنها اعتمدت على مناهج علمَي التاريخ و الآثار للإجابة عن معظم المسائل المطروحة في قضاة. أحاول في صدد هذا المقال تقديمَ بديلٍ لهذه الطريقة التفسيرية المتناقضة في أصولها بغية فتح مقاربات جديدة تسمح للقارئ بفهم سفر القضاة في إطاره الأدبيّ والقانونيّ. لذلك وبدلاً عن أن أعرض وصفًا لطقوس الحرب المقدسة وأن أحلل ملامحها، كما ورد في معظم الدراسات الكلاسيكية[2]، نجد في هذا المقال وصفًا لوظيفة الحرب المقدسة في سرد القضاة وأهميتها بالنسبة إلى جماعة المؤمنين الذين يعتبرون هذا السفر «كلمة الله».

الغيرة على العهد

تقول إحدى الطروحات اللاهوتية المحورية في سفر القضاة إنّ شعب الله، اسرائيل القديم، هو شعبٌ متمرّد، مخالف للشريعة «يعود ويعمل الشر في عيني الربّ[3]». حسب قضاة، يرتكب اسرائيل الخطيئة عينها دائمًا إذ يذهب وراء آلهة الشعوب التي سيطرت عليه. فعندما يقع بنو اسرائيل في العبودية، يضطرّون إلى أن يتبنّوا تلك المعتقدات الغريبة وأن يعبدوا البعليم والعشتروت وكل إله يؤمن به الشعب الحاكم عليهم في المنطقة[4]، فيما كان الرب حررهم من نير مصر لكي يكونوا أحرارًا (خر ٣: ٧–١٠؛ ٦: ٦)، ويعبدوا الأله الحقيقيّ (تث ٧)، ويشهدوا له أمام كل الأمم (تث ٢٦: ١٦–١٩؛ ٢٩: ٢١–٢٨). بعبارة أخرى، انّ الرب قد قطع عهدًا مع شعبه ووعد بحفظه إلى الأبد (تث ٧: ٩)، ولكن اسرائيل كان يخالف هذا العهد مرةً تلو أخرى. لذلك يعتبر سفر القضاة هذه المخالفة للعهد خطيئة اسرائيل الكبرى. وفي حين يشبّه هوشع النبي ومَن بعده العهدَ القائم بين الرب وشعبه بالعهد القائم بين الزوج

١– GONZÁLEZ LAMADRID, A., "Historia deuteronomista", in: GONZÁLEZ LAMADRID, A. / CAMPOS SANTIAGO, J. (Ed.), *Historia, Narrativa, Apocaliptica* (IEB 3b, Estella, 2000) 71. راجع أيضًا مقالة نقولا أبو مراد، «سفر القضاة بين التاريخ واللاهوت»، في هذا العدد من مجلّة بيبليا.

٢– راجع على سبيل المثال:

DE VAUX, R, *Ancient Israel. Its Life and Institutions* (London, 1961) 247-267; Toombs, L. E., "War, ideas of", in: *Interpreter's Dictionary of the Bible IV* (New York - Nashville) 796-805.

٣– راجع قض ٣: ١٢؛ ٤: ١؛ ٦: ١؛ ١٠: ٦أ؛ ١٣: ١.

٤– راجع قض ٢: ١١–١٣؛ ٣: ٧؛ ٦: ٧–١٠؛ ١٠: ٦ب.

وزوجته[٥]، يدخل واضعو سفر القضاة في هذا الخط النبوي فيسمّون خطيئة اسرائيل زنى ضد الرب في بداية هذا العمل الأدبي. لذا توجب على الرب أن يتدخل من أجل إنقاذ عروسه الحبيبة وتعليمها أن تتصرف بحسب العهد القائم. يتم هذا التدخل في سفر القضاة بواسطة رجال ونساء يحفظون غيرتهم على الرب ويخاطرون بحياتهم بسبب إخلاصهم له. هذه هي الحبكة الرئيسة في سفر القضاة ومنها نفهم النصوص التي تسرد الحرب المقدسة.

الرب يعتني بعروسه

إن المبادر في جميع الحروب التي يخبر عنها سفر القضاة هو الرب، إما لينقذ الشعب من الاستبداد (قض ٢: ٤؛ ١٠: ٧–٨) وإمّا ليفتح لهم أرضًا للمكوث فيها (قض ١٨: ١–٦). لا نقرأ عن حرب تهدف إلى تدمير شعب ما لمجرد عدم معرفتهم للرب. إنما في حوار يعرض فيه الكاتب قراءته الخاصة لفتح أرض كنعان، يؤكد القاضي يفتاح مثلاً أنّ اسرائيل كان دائمًا يطلب إذنًا للمرور عبر الممالك المختلفة، ولكنهم كانوا دائمًا يرفضون الطلب، ولذلك رفع الله الميراث من هؤلاء وأعطاه لإسرائيل (قض ١٢: ١١–٢٨). فالله قام بالحرب فقط من أجل تحرير شعب مظلوم يحتاج إلى مكان يسكن فيه. إنه لأمرٌ أساسيّ أن نفهم أخبار القضاة من هذه المقاربة. فَلْنلاحظ على سبيل المثال تشديدَ النصوص على الضيق الذي يعيشه الشعب المؤمن وعلى عجزهم في الدفاع عن أنفسهم (قض ١٥: ٦؛ ٧: ١٠–٩؛ ١: ١٣). كما وأنّ النصوص تلمّح إلى قلّة عدد المقاتلين (قض ٧: ٢–٧) وإلى ضآلة قوتهم (٣: ٢٩–٣٠). كذلك تتحول كل معركة إلى «خروج جديد» يختبر فيه الشعب المؤمن خلاص الله. حول هذا المحور المركزي يدور السرد في قضاة لكي يُظهِر للقارئ أن على اسرائيل أن يسكن بين الأمم لكي يُمتحَن ويَعرِف العمل الخلاصي في كيانه (قض ٢: ٢٠ – ٣: ٦).

في كتابات الشعوب الأخرى في الشرق الأدنى القديم نجد حروبًا مقدسة، ولكن الرب في العهد القديم يختلف عن الآلهة الأخرى لأنه لا يأتي كمساعد لقوات الملك ولا كشريك في النصر[٦]. بل على العكس، الرب في قضاة هو الوحيد الذي يحارب والذي ينتصر. الانتصار للرب وحده. وإذا تناسى اسرائيل هذا واعتقد أنه بقوته الخاصة حصل على النصر، فكان الرب ينظر إليه كأمة غريبة، فيؤدّبه ويقاصصه كأنه شعب أممي خاطئ. كذلك الأمر إذا ما اتّكل اسرائيل على آلهة أجنبية، كان الله يدمّره أو يسلّمه لنير ملك غريب ومستبدّ[٨]. يعود كل ذلك إلى أنّ انكار اسرائيل لتدخّل الرب يجعله مخالفًا للعهد المنعقد، فيُبطِل دوره كمخاطب للرب ليصيرَ أمةً أخرى لا تعرف الله. لا يوجد في العهد القديم سفر آخر يعبّر بهذا الفنّ السرديّ الجليّ كما عبّر عنه ناظم المزامير عندما يقول: «هؤلاء بالمركبات، وهؤلاء بالخيل، أما نحن فاسم الرب إلهنا نذكر. هم جثوا وسقطوا، أما نحن فقمنا وانتصبنا» (مز ٢٠: ٧–٨).

الرب هو من يُرسل الاستبداد والتحرير في رواية القضاة، هو من يسود على اسرائيل والأمم، فيتجلى إلهًا واحدًا حقيقيًا بالرغم من عناد اسرائيل الذي يرجع فيعبد آلهة الغرباء. إذن، القصص «الحربيّة» في سفر القضاة تؤكّد أنّ إله اسرائيل وحده هو الإله الحقيقيّ والعالميّ، حتى لو تمرّد اسرائيل وخطئ كما يخطأ كل بشر إزاء مشيئة الله.

٥– لم يُعتبَر الزواج في العالم القديم كعهد بين طرفَين متساويَين، بل كانوا ينظرون إلى الرجل كالقائد والسيّد (كان الزوج يسمّى «بعلاً» في العالم الشرقي القديم)، وإلى الامرأة كتابعة الرجل وخادمته. ساهمت هذه المؤسسة الاجتماعية في تصوير الأنبياء للعلاقة بين الله وشعبه. أنظر مثلاً هو ٢: ٤–٢٥؛ إر ٢: ١–٣؛ ٣: ١–٥؛ حز ١٦: ١–٢٢. راجع أيضًا: أبو مراد، نقولا، «مفهوم "العهد" في العهد القديم. دراسة تفسيرية انطلاقًا من صورتي الزواج والأبوة في هوشع ١–٣ و ١١»، في: أيوب شهوان/ أنطوان قسيس، **دراسات في العالم الشرقي والتاريخ اللبناني. مقالات مهداة إلى الخوري بولس الفغالي**، جونيه، ٢٠٠٢، ٨٩–٩٨؛ طرزي، بولس، **مدخل إلى العهد القديم**. الجزء الثاني: التقاليد النبويّة، بيروت، ١٩٩٨، ١٣٥–١٣٨.

٦– قض ٢: ١٧. نجد هذه العبارة أيضًا مرّتين في قصة أبيملك في قض ٨:٢٧، ٣٣.

٧– بالرغم من اعترافه بأهمّية معونة الإله آمون، يشدّد رعمسيس الثاني في صلاته بمناسبة معركة قادش (١٢٨٥ ق.م.) على مقدرة جيوشه وقواته؛ فالإله آمون يعاون الفرعون وليس العكس. هكذا أيضًا يرفع نبوكدنصّر الثاني، ملك بلاد الرافِدَين بين ٦٠٥–٥٦٢ ق.م.، دعاءه إلى الإله شَمَش ويطلب منه تقوية الأسلحة للانتصار على الاعداء. راجع نصوص هذه الصلوات في:

Équipe Cahiers Évangile, *Prières de l'Ancien Orient* (DB 1, Paris, 1979) 37. 73-75.

٨– راجع خيانة أبيملك لأبناء يربعل في قض ٩: ١–٦، وتدخّل الربّ في ٩: ٢٢–٢٣ الذي يسبّب موت أبيملك في ٩: ٥٠–٥٧. في قض ٣: ١٢–١٤؛ ٦: ١؛ ١٠: ٧؛ ١٣: ١ نقرأ أنّ الربّ نفسه أرسل الضيق على اسرائيل. أنظر أيضًا المقطع تث ٨: ١٧–٢٠ حيث يرد الفكر اللاهوتي عينه الذي في قضاة.

الرب يسود على كل الشعوب

إن سفر القضاة هو سفر الشهادة لقوة الرب التي تتراءى في روحه. لاحظَ النقاد بحق تكرار العبارة «روح الرب»، ست مرات في كل السفر وفي مواقع حاسمة. فبالفعل، نرى أن القوة المعطاة من الرب لجدعون تسمح له أن يحقق عمله الانقاذي (قض ٦: ١٤ و٣٤). هذه القوة تحل أيضًا على عثنيئيل ويفتاح في قض ٣: ١٠ و١١: ٢٩ على التوالي. هناك شمشون أيضًا الذي اختبر روح الرب منذ صغره (قض ١٣: ٢٥) وقبل المعركة الحاسمة (قض ١٤: ٦ و١٩؛ ١٥: ١٤).

أضِف إلى هذا الحضور الملحّ لروح الرب في الرواية، أنّ القضاة المختارين لا يليقون بالعمل المطلوب، لا من حيث أصلهم، ولا من حيث ميولهم الدينية السابقة، فنفهم أن البطل الوحيد والحقيقي في سفر القضاة هو الرب. لنذكر على سبيل المثال أنّه كان لأبي جدعون مذبح مكرّس للإله بعل (٦: ٢٥–٣٢) وأنّ اسم شمجر بن عناة، القاضي المذكور باختصار في قض ٣: ٣١، يشير إلى أنّه كان من أصل كنعانيّ. وأيضًا أنّ يفتاح، أحد القضاة الكبار، طُرد من مصفاة جلعاد لأنه كان ابن امرأة زانية، وكان قائد عصابة رجال بطالين قبل أن يُدعى ليحارب ابناء عمون من أجل اسرائيل (قض ١١: ١–٣). وأخيرًا وفي هذا الإطار نذكر أنّ ملامح شخصية شمشون تشير إلى أصل كنعاني للرواية وإلى علاقتها بالأساطير حول الشمس: فاسمه يعني «الشَمَيّس»، والمواضيع الأساسية في القصة تدور حول «القوة، الشعر، الأسد، العسل، والعمى»[9]. كما يجدر ذكره أنّ أحد القضاة الاكثر شهرة كان امرأةً اسمها دبورة، وهذا أمر غريب في مجتمع ذي طابع بطريركيّ.

هذه «النخبة» من القضاة العائدين إلى أصل وثني وخاطئ تتطابق تمامًا مع الوعد لإبراهيم بأن يجعله الرب أبًا لسائر الأمم (تك ١٢: ٣). منذ البدء يبدو الإيمان بيهوه إيمانًا مفتوحًا على كل ساكني الأرض، لا بل الرب يظهر لكل الأمم الظالمة كالسيد المرعب والمسيطر الذي يضمن النصر لإسرائيل الصغير. هكذا تروي قصة هروب سيسرا قبل أن يواجه باراق (قض ٤: ١٤–١٥) أو قصة انتحار المديانيين والعمالقة وهروبهم قبل معركتهم مع جيوش جدعون الضعيفة (قض ٧: ٢٢). سيادة الرب على الأمم قوية بهذا المقدار، إذ بامكانه تأمين الغلبة قبل المعركة. هكذا نقرأ أيضًا في الرواية التمهيدية لمعركة يهوذا ضد الكنعانيين (قض ١: ١–٤). باختصار، إن إله القضاة لا يعمل لصالح عِرقٍ ما ولا لصالح وجهاء قبائل ما، بل يختار من بين كل الشعوب أناسًا عاديّين وخطأة لكي يتمّموا العهد وينالوا المواعيد، مهما كان أصلهم أو جنسيتهم.

في نهاية هذا المقطع تجدر الإشارة إلى فقدان مفهوم الحرام في سفر القضاة (في العبرية: «حِرِمْ»). نجد أن الوزن «حرم» وجميع مشتقاته يغيب عمليًا عن نصوص الكتاب. هذا يعود أولاً إلى أنّ سفر القضاة لا يخبر عن فتوحات الأرض بل بالأحرى عن دفاع ساكني الأرض. مع ذلك، هناك مقطعان يعودان إلى اليد التحريرية الأخيرة (قض ١: ١٧ و٢١: ١١) حيث يرد شكل من أشكال الوزن «حرم». في التاريخ المدوّن من مدرسة تثنية الاشتراع كان دائمًا القصد الأول للحرام أن يقدم الشعب لله نتائج النصر معترفين بأن لله وحده السلطة والمجد. هكذا تعلّمُ رواية يشوع بن نون ٦–٨ التي تذكر قوانين الحرام والمخالفة المرتكَبة من قبل عخان بن كرمي التي أدّت إلى هزائم كبيرة لإسرائيل. من هنا نفهم لماذا أسقط باراق كل جيش سيسرا بحد السيف ولم يبقَ ولا واحد (قض ٤: ١٦)، أو لماذا حرّم يهوذا وشمعون سكان صفاة (قض ١: ١٧)[10].

الخاتمة

يتّضح من هذا البحث القصير أن استقراء التاريخ البشري لشعب اسمه اسرائيل انطلاقًا من سفر القضاة هو عمل شاقّ قد يبقى عاقرًا ودون ثمار. لم يكن في قصد واضعي سفر القضاة، كما أستنتج، أن يعرضوا أحداثًا بشريةً بل أن يرشدوا الشعب في الإيمان على أساس قراءتهم الخاصة جدًا للتاريخ التي تُظهر عمل الله المحسن والمنعم من أجل خلاص المُعْوِزين مهما كان أصلهم أو جنسيتهم.

إن الأخبار عن الحروب المقدسة التي يرويها سفر القضاة المختصرة البسيطة بالنسبة إلى الوقائع والأعمال، تتوقف باهتمام دقيق على الأفكار اللاهوتية، وتشدد على أنّ الرب يغار على مَن يدعو باسمه القدوس، ويعتلن إلهًا يحارب الشرّ ويقف دائمًا مع المتألمين لكي يفتديهم ويمنحهم الخلاص.

٩– NOËL, DAMIEN, *Les origines d'Israël* (C. E. 99; Paris, 1999) 33.

١٠– تجدون دراسة مفصلة عن «الحرام» في العهد القديم في: DE VAUX, R., *Ancient Israel. Its Life and Institutions* (London, 1961) 260-261.

الكربون ١٤ في عون الملك البيبلي حزقيّا*

التأكيد على صحّة النصوص البيبليّة بوسائل علميّة، أصبح منذ بضع سنوات رهانًا جذّابًا لبعض البحّاثين. ألا يصف الطوفانُ الفيضانَ الفاجع لمياه البحر المتوسّط في المنطقة التي يشغلها حاليًّا البحرُ الأسود؟ عبور موسى للبحر الأحمر هل يمكن أن يفسَّر بصورة طبيعيّة؟ هل نعثر على هيكل سليمان وعلى تابوت العهد الذي كان يحتويه على غرار إنديانا جونز (Indiana Jones) المشهور؟ عدد من الموضوعات يخضع للدراسة اليوم.

في هذه اللعبة الصغيرة، أحرزَ فريقٌ من الجيولوجيّين الاسرائيليّين تفوقًا كبيرًا في عدد **مجلّة الطبيعة** (*Nature*) الذي صدر نهار الخميس، في ١١ أيلول ٢٠٠٢. كان يُقتضى البرهان على أنّ أحد «الآثار التذكاريّة» الأكثر شهرة في أورشليم، وهو قناة الماء المحفورة تحت الأرض والتي تصل نبع جيحون بحوض شيلوح، كانت قد حُفرت في عهد حزقيّا ملك يهوذا، الذي حكم من ٧١٦ إلى ٦٨٨ قبل الميلاد.

نزاع بين علماء النصوص القديمة

في الحقيقة إنّ العهد القديم يبيّن كيف أنّ حزقيّا، إزاء تهديد ملك أشور، سنحاريب، الذي حاصر أورشليم في العام ٧٠١ قبل المسيح، قرّر «أن يسدّ ينابيع المياه التي كانت خارج المدينة»، «أنجز البحيرة والقناة وأوصل المياه إلى المدينة». إنّ النفق الذي يبلغ طوله ٥٣٠ مترًا موجود دومًا، ولكن ما من مؤشّر تاريخيّ موضوعيّ يثبت أنّ الحفر أُنجز في عهد حزقيّا.

إنّ الكتابة الوحيدة الموجودة في النفق، لا تتضمّن اسم الملك، بل تحدّد بكلّ بساطة انتهاء أعمال الحفر. في العام ١٩٩٦ قام نزاع بين علماء النصوص القديمة في شأن هذه الكتابة. منهم مَن أكّدوا أنّ الكتابة تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وآخرون أنكروا هذا الافتراض وجنحوا إلى نسبتها إلى القرن الثاني قبل الميلاد، استنادًا إلى شكل الحروف. بالرغم من أنّ النظريّة الأولى لاقت قبولاً لدى أكثريّة الاختصاصيّين، فإنّه ينقصها، للبتّ بالمسألة، برهانٌ نابعٌ من العلوم المسمّاة ثابتة. إنّ الدراسة المنشورة في **مجلّة الطبيعة** ملأت الفراغ الذي كان قائمًا. في الحقيقة، لَم يظهر أيّ دليل أثريّ في النفق الذي أُزيلَ الركامُ منه قبل مدّةٍ طويلة. لكنّ مؤلّفي المقالةِ قرّروا أخذَ عيّنات صغيرة من التراب في التَّكْسِيَةِ التي كانت تؤمّن إحكام السدّ. كانت هذه التَّكْسِيَةِ مكوَّنةً إجمالاً من عدّة طبقات متلاصقة من الجص.

بين الثقوب الخمسة عشر التي حفروها، وُفِّقَ البحاثون في أن يجدوا، في طبقة الجص الأكثر قِدَما، قطعة صغيرة من الخشب وجزءًا من نبتة، لا يزالان كلاهما في حالة حسنة.

وبفضل الكربون ١٤ الذي ساعد في تحديد التاريخ، استطاع البحّاثون أن يؤكّدوا أنّ قناة الماء بُنِيَتْ نحو سنة ٧٠٠ ق. م. وهذا ما أثبتَه تحليلُ راسبٍ كلسيٍّ متحجّر كائن في سقف نفق شيلوح قُدِّرَ عمرُه بِما يزيد على ٢٢٠٠ سنة. وهكذا سلم مجد حزقيّا.

نقلها إلى العربيّة
الأستاذ أمين مرعي

---

* Pierre BARTHÉLÉMY, «Le carbone 14 au secours du roi biblique Ezéchias», *Le monde* fr., 30.9.03.